العلاقات بين مصر والدول الشرقية

فى العصر الهيلينستى

عند وفاة الإسكندر الأكبر فى شهر يونية عام ٣٢٣ ق . م . كانت الإمبراطورية المقدونية تشمل مقدونيا وبلاد الإغريق ومصر وأغلب آسيا من بحر إيجة حتى البنجاب جنوبى القوقاز وبحر قزوين فيما عدا شمال آسيا الصغرى وأرمينيا والجزيرة العربية[١] . ومن ثم كانت أغلب الدول العربية التى نعرفها اليوم ، وهى العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ومصر ، تكوّن جزءاً من هذه الإمبراطورية . وعندما اجتمع قواد الإسكندر فى بابل ، غداة وفاته ، ليبحثوا مشكلة حكم الإمبراطورية المقدونية تقسمت أقاليمها بين عدة منهم ليحكموها باعتبارهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . لكن الأقاليم الشرقية لم تلبث أن آلت إلى اثنين من هؤلاء القواد وهما بطلميوس والى مصر وسليوكوس (Seleucus) والى بابل . ويحكم الجوار وتشابه الأهداف تارة وتعارضها أطواراً . كانت العلاقات السياسية بين أسرتى هذين العاهلين ودية أحياناً وعدائية أحياناً أخرى . وقد كان لهذه العلاقات الطويلة الأمد أبلغ الأثر فى السياسة الدولية بوجه عام وفى مصير مصر بوجه خاص .

لم يكد يمضى على وفاة الإسكندر عامان حتى بدأ بين خلفائه صراع عنيف دام أربعين عاماً . وكان السبب الرئيسى لهذا الصراع تصادم الأطماع بين القواد المتتابعين الذين كانوا يهدفون إلى لم شعث الإمبراطورية وتوحيدها وبين حكام الولايات الذين كانوا يتطلعون إلى استقلال كل منهم بولايته . وقد تمخضت الحلقة الأولى فى هذا الصراع عن مقتل پرديكاس (Perdiccas) الوصى العام على الإمبراطورية الذى أراد أن يفرض سلطانه على الولاة الباقين

(١) Turn, Hellenistic Civilisation, 1930, p. 6.

وعن اجتماع القواد فى تريپاراديسوس (Triparadisos) فى عام ٣٢١ ق . م . لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطورية من جـــديد . وكان من أهم قرارات هذا الاجتماع تعيين القائد العجوز انتيپاتروس (Antipatros) وصياً عامًّا على الأمبراطورية ؛ وتعيين سليوكوس والياً على بابل ، واحتفاظ أنتنجونوس (Antigonos) بولايته التى كانت تشمل الجانب الأكبر من آسيا الصغرى مع تعيينه قائداً عاماً للجيش المقدونى فى آسيا[١] .

ولما كان بطلميوس قد لعب الدور الرئيسى فى القضاء على برديكاس فإنه كان أكثر القواد نفوذاً يوم اجتماع تريباراديسوس . ولو قدر له أن يقرأ صفحة المستقبل لوسعه أن يحول دون منح بابل لسليوكوس ، غير أنه ليس فى وسع أفطن الساسة وأبعدهم نظراً وأصدقهم حساً أن يتنبأوا دائماً بمجرى الحوادث ويتحكموا فى تكييفها . ولو شاء بطلميوس لآلت إليه الوصاية على الأمبراطورية ، لكنه رفض هذا المنصب المحفوف بالمخاطر عندما عرض عليه ، مفضلا الاكتفاء بولايته والعمل على الاستقلال بها وتشييد صرح مملكة قوية غنية فيها ، يحمل صولجانها أحفاده على تعاقب الأجيال . وقد أثبتت الأيام بعد نظره ، فقد عمر أكثر من أى وصى على الأمبراطورية وعمرت دولة البطالة أكثر من أى دولة هيليستينية أخرى . ومن أجل الفوز باستقلال مصر عقد بطلميوس العزم على مناهضة كل من يحاول توحيد الأمبراطورية المقدونية ، وقد مر بنا أنه لعب الدور الأول فى القضاء على يرد يكاس ، الذى كان أكبر نصير لوحدة الأمبراطورية . وقد كان جزءاً من برنامج بطلميوس للمحافظة على استقلال مصر ضم الملحقات الطبيعية إليها ، وهى برقة لحماية حدود مصر الغربية وجوف سوريا (أى جنوب سوريا وفينيقيا وفلسطين) وقبرص لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التى يفتقر إليها وادى النيل . ولذلك فإنه ما كادت قدماه تطأ أرض مصر حتى استولى على برقة . ثم انتهز فرصة السلطة المركزية بعد وفاة انتيپاتروس واستولى عنوة فى عام

---

(١) Jouguet, Macedonian Inperialism, pp. 130-3; Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 6.

٣١٩ – ٣١٨ من لاومدون (Laomedon) والى سوريا على جوف سوريا[١] (Coele-Syria) .

ولم يلبث أنتيجونوس أن اعتلى خشبة المسرح السياسى ليمثل الدور الذى قام پرديكاس من قبل . ولما كان كل من بطلميوس وسليوكوس يريد الاستقلال بولايته فقد تلاقت أهدافهما السياسية فى مكافحة أطماع أنتيجونوس . وحيث أن بطلميوس كان أقوى دعاة الانفصالية ، فإنه عندما استهدف سليوكوس للمخاطر من ناحية أنيتجونوس فر إلى مصر فى صيف عام ٣١٦ ، فأحسن وفادته بطلميوس الذى دخل فى مفاوضات مع كاساندروس (Cassandros) حاكم مقدونيا وبلاد الإغريق – وليسماخوس (Lysimachos) – حاكم تراقيا – انتهت بعقد محالفة بينهم جميعاً فى عام ٣١٥ للمحافظة على مركز كل منهم فى ولايته ووضع حد لأطماع أنتيجونوس[٢] ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من اصطدام الفريقين . وعندما أحرز بطلميوس نصراً مبيناً على ديمتريوس بن أنيتجونوس فى موقعة غزة عام ٣١٢ استطاع سليوكوس أن يعود إلى ولايته ويستردها بسهولة فى أكتوبر من نفس ذلك العام ، وأن يبدأ العمل بجد فى بناء دولة قوية له تضم كل الولايات الواقعة شرقى بابل . وهكذا أسدى بطلميوس لسليوكوس خدمتين جليلتين ، فقد آواه فى محنته ثم مهد له سبيل استعادة ولايته بل تكوين إمبراطورية شرقية ضخمة ، لكنه كان فى ضمير الدهر أن الصداقة لن تدوم طويلا بين سليوكوس وبطلميوس . وبيان ذلك أنه فى عام ٣١٢ جدد الحلفاء محالفة عام ٣١٥ ، إلا أنها لم ترم هذه المرة إلى كبح جماح أطماع أنتيجونوس فحسب بل إلى القضاء عليه[٣] . ولم يلبث أن قضى على أنتيجونوس فى العام التالى لكن لما كان بطلميوس لم يقم نحو حلفائه بخدمة يستحق عليها نصيباً من الأسلاب ، فقد تقرر ألا يمنح جوف سوريا الذى كان قد فقده

---

(١) Bouché-Leclercq, His. Lagides, I, pp. 16-17.

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ٤٠ .

(٣) إبراهيم نصحى ص ٤٧

(٤) Bouché-Leclercq, I, pp. 83-6; Bevan, Hist. Eg. Under The Ptol. Dynasty, pp. 34-5; C.A.H. VII, pp. 76-7.

فى خلال الصراع مع العدو المشترك ووعد به عندما حددت المحالفة ، بينما اقتسم الأسلاب ليسياخوس وسليوكوس ، اللذان اضطلعا بالعبء الأكبر فى الحرب ، ففاز أولها بكل آسيا الصغرى تقريباً ، وثانيهما بكل سوريا التى جعلها المركز الحقيقى لإمبراطوريته فقد أسس فيها أنطاكية التى غدت عاصمة لهذه الإمبراطورية .

وإذا كان حلفاء بطلميوس قد أبوا عليه جوف سوريا فإنه كان قد انتهز فرصة اشتباك الحلفاء مع أنتيجونوس وأعاد احتلال ذلك الإقليم ورفض بعد ذلك النزول عنه . وكان هذا ينطوى على خطر الاشتباك مع سليوكوس الذى احتج فعلا على موقف بطلميوس لكنه لم يستطع أن ينسى صنيع بطلميوس ولذلك أكتفى عندئذ بالمطالبة بحقوقه وتأجيل الصراع مؤقتاً من أجل جنوب سوريا . وهكذا نشأت المشكلة السورية التى أفضت فيما بعد إلى تعكير صفو تاريخ أسرتى بطلميوس وسليوكوس .

وإذا كان الخلاف قد نشب على هذا النحو بين أسرتى بطلميوس وسليوكوس فقد كان مقدراً ألا تبدأ الحلقة الأولى من الصراح المسلح بينهما إلا فى عهد خلفتيهما بطلميوس الثانى وأنطيوخوس الأول . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أنه بموت سليوكوس ، آخر أفراد الجيل الأول من خلفاء الإسكندر ، فى عام ٢٨٠ وظهور الجيل الثانى من أولئك الخلفاء ، استقرت فكرة قيام دول هيلينستية مختلفة على إنقاض الإمبراطورية المقدونية ووجد نوع من توازن القوى فى العالم الهيلينستى الذى أصبح يقتسم النفوذ فيه ثلاث ممالك عظيمة ، وقد كانت عندئذ أقوى هذه الدول . وكانت تليها دولة السليوكيين ، التى كانت تشمل ولايات إمبراطورية الإسكندر فى بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانباً كبيراً من آسيا الصغيرى ، وسوريا فيما عدا أقليم جوف سوريا . أما الدولة الثالثة فكانت مقدونيا[1] .

وقد كانت لكل من هذه الدول حاجاتها ومراميها وكذلك خطتها ووسائلها لتحقيق ذلك . وعلى الرغم من أن مصر خرجت من الصراع العنيف من خلفاء

(١) Rostovtzeff, p. 27.

الإسكندر أقوى وأغنى دولة هيلينستية ، فإن البطالمة الأوائل (الأول والثانى والثالث) ، الذين كانوا أقوى أفراد أسرته ، لم يفكروا فى إعادة تكوين إمبراطورية الإسكندر ، إذ كان هدفهم الأساسى الدفاع عن استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول فى حلبة السياسة وفى مضمار الاقتصاد فى العالم الهيلينستى وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك إحراز السيطرة على بحر إيجة . وكانت السيطرة على عصبة جزر الكيكلاد (Cyclades) ، التى فاز بها أولا بطلميوس الأول ثم وطد دعائمها بطلميوس الثانى ، لا تكسب مصر إلا سيطرة جزئية سياسية واقتصادية على بحر إيجة . ولاستكمال هذه السيطرة حاول بطلميوس الثانى الاستيلاء على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وبسط نفوذه على المراكز التجارية الهامة على ضفاف الدردنيل وبحر مرمرة وشاطئ البحر الأسود الجنوبى . ومن ناحية أخرى كانت سلامة هذه الإمبراطورية الإيجية تتطلب الاستيلاء على الموانى الكبيرة على شواطئ فينيقيا وفلسطين . وهذا يفسر شدة عناية البطالمة وخاصة الأوائل منهم بالاستيلاء على جوف سوريا . وقد حدت الرغبة فى السيطرة على بحر إيجة بالبطالمة الأوائل إلى أن يحاولوا تقوية نفوذهم فى أهم الموانى الإغريقية ، ليمنعوا حكام مقدونيا من أن يصبحوا أقوياء فى البحر . ولم يملِ هذه السياسة على البطالمة اعتبارات اقتصادية فحسب إذ كانوا يعتبرون سيطرتهم على بحر إيجة أساس كيانهم السياسى ومصدر قوتهم ، فإن عزلتهم فى مصر كانت تضعفهم أمام دولة السليوكيين فى سوريا ، التى كانت فى قبضتها المدن الإغريقية فى الأناضول ، وأمام مقدونيا التى كانت تسيطر على إغريق البلقان ، على حين كانت سيطرة البطالمة على الطرق التجارية فى بحر إيجة وفى سوريا توفر لهم موارد جمة فى الرجال والأموال . ومن الجلى أن هذه السياسة كانت تضر بمصالح سوريا ومقدونيا ، ولذلك كان البطالمة لا يستطيعون تحقيق أهداف سياستهم الخارجية دون القيام بمجهود حربى عنيف مستمر .

لقد كان إذن طبيعياً ألا يسلم السليوكيون باستيلاء البطالمة على جوف سوريا لأن ذلك كان يحرمهم من إنشاء أسطول كبير والاحتفاظ به فى موانيهم السورية ، بل قد يسد فى وجوههم ، إذا شاء البطالمة ، سبل الاتصال بالبحر

الأبيض المتوسط . وإذا كانت الظروف القاهرة قد أرغمت السليوكيين على النزول عن شمال آسيا الصغرى فإنهم كانوا لا يسلمون طواعية لمصر بالسيطرة على شواطئ آسيا الصغرى والجنوبية والغربية والطرق الحربية والتجارية ، التى كانت تؤدى من إمبراطوريتهم الأسيوية إلى ثغور آسيا الصغرى الغربية ، لأنه كان يترتب على ذلك أن تصبح دولتهم مملكة شرقية بحقة منعزلة تماماً عن العالم الإغريقى[١] . وإزاء كل ذلك لم يكن هناك مفر من أن يصطدم السليوكيون بالبطالمة إصطداماً عنيفاً .

وقد بدأ النضال العنيف بين أنطيوخوس الأول وبطلميوس الثانى فى عام ٢٨٠ عندما نشبت بينهما حرب غامضة (٢٨٠ — ٢٧٩) يسميها البعض « الحرب الكارية »[٢] . أما الحرب « السورية الأولى » فإنها بدأت فى عام ٢٧٦ عندما غزا بطلميوس (الثانى) سوريا لكنه بعد نجاح مبدئى منى بالهزيمة فأعاد الكرة بعد ذلك بعامين وأحرز إنتصارات باهرة فى البر والبحر حتى أنه عندما عقد الصلح فى عام ٢٧٣ أو ٢٧٢ كانت ممتلكات مصر قد إتسعت إتساعاً كبيراً على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك فى جنوب سوريا الذى غدا بأكمله مصرياً[٣] . وفضلا عن ذلك فإن مصر أخضعت أيضاً قبائل إدوميا والبحر الميت وشرق الأردن[٤] .

وفيما بين أكتوبر عام ٢٦٢ وأبريل عام ٢٦١ توفى أنطيوخوس الأول وخلفه ابنه الأصغر أنطيوخوس الثانى ، وكان أميراً نشيطاً وضع شئون دولته فى نصابها ولم يلبث أن اشتعل بينه وبين بطلميوس الثانى لهيب « الحرب السورية الثانية » التى نجهل الكثير عن أصلها وأحداثها ، إلا أننا نعرف أنها كانت سيئة الطالع على بطلميوس الثانى الذى فقد من جرائها أغلب ممتلكاته فى آسيا الصغرى

---

(١) Rostovtzeff, pp. 29-30.

(٢) Jouguet, Nat. Eg., p. 49.

(٣) C.A.H. VII, pp. 703-4.

(٤) Jouguet, Mac. Imp., p. 246.

وكذلك كل فينيقيا شمالى صيدا[١] ، لكن مهارته السياسية كادت أن تعوضه خيراً عن خسائره الحربية ، فإنه فى عام ٢٥٣ أفلح فى كسب أنطيوخوس إلى جانبه بالمصاهرة . وبيان ذلك أن أنطيوخوس كان متزوجاً من ابنة عمه لاوديكى (Laodice) التى أنجبت له ابنين وابنتين ، لكنها كانت قوية الشكيمة ، فتمكن بطلميوس من إقناعه بعقد معاهدة تقضى بأن يترك لاوديكى ويتزوج من ابنته برينيكى (Bercnike) ، بشرط أن يكون عرش أنطيوخوس من بعده لأبناء زوجه الجديدة . وقد أقصيت لاوديكى وأبناؤها إلى إفيسوس ، وفى أواخر عام ٢٣٥ وصلت برينيكى فى صحبة وزير مالية أبيها ، ثم عقد الزواج فى العام التالى ، وإذا كان فى وسع بطلميوس أن يرقب من وراء هذا الزواج على الأقل الفرصة ليتدخل فى الشئون السورية ويوجد لنفسه أولياء فى أمبراطورية جاره . فماذا كان أنطيوخوس يستطع أن يأمل من وراء هذه المعاهدة ؟ إن المؤرخين القدماء يدعون زوجه الجديدة « برينيكى فرنفوروس » (Phernephoros) أى صاحبة الصداق العظيم . وقد كان هذا المهر الهائل دون شك تعويضاً مقنعاً عن الحرب ، ويظن البعض أنه كان يشمل دخل مدن جوف سوريا . ولعل أنطيوخوس كان يأمل فى استرداد هذا الإقليم بتفسير المعاهدة تفسيراً محتملا لصالحه[٢] .

وقد أدى زواج برينيكى من أنطيوخوس الثانى إلى قيام الحرب السورية الثالثة عندما توفى هذا الملك فيما بين أكتوبر عام ٢٤٧ وأبريل عام ٢٤٦ ، فإن عقب ذلك مباشرة احتدم بين لاوديكى وبرينيكى نزاع عنيف من أجل العرش حدا ببطلميوس الثالث إلى التدخل بالقوة لتدعيم حقوق أخته وابنها . وعلى الرغم من أن بطلميوس الثالث قام بحملة موفقة فإن أخته وابنها قتلا فى عام ٢٤٥ عندما وقعت فى إنطاكية فتنة ذهبا ضحيتها[٣] وآل العرش إلى سليوكوس الثانى ابن لاوديكى الذى استطاع أن يسترد ولايته الشرقية وجانباً

---

(١) C.A.H. VII, pp. 711-15.

(٢) C.A.H. VII, p. 715; Jouguet, Nat. Eg., pp. 53-4.

(٣) إبراهيم نصحى ص ٦٥ — ٦٦ .

من كيليكيا وكل سوريا السليوكية فيما عدا سليوكيا على نهر العاصى ، لكنه عندما حاول غزو جنـــوب سوريا هزم وارتد إلى إنطاكية . وعقب ذلك حاصرت قوة مصرية دمشق ، إلا أنه استطاع أن ينجدها ويرفع الحصار عنها ، لكن مصر انتهزت فرصة انشغاله باسترداد سوريا الشمالية وأخذت توسع ممتلكاتها على شواطئ آسيا الصغرى ، فبلغت أمبراطورية البطالمة إذ ذاك أوج اتساعها[١] .

ولم تلبث الخلافات أن قطعت أوصال أسرة السليوكيين ، إذ أن لاوديكى اضطرت ابنها سليوكوس الثانى إلى اقتسام الأمبراطورية مع أخيه الصغير أنطيوخوس هيراكس (Hierax) ، مما أفضى إلى حرب ضروس بينهما يطلق المؤرخون عليها « حرب الأخوين » . ولا شك فى أن السياسة والأموال المصرية كانت فى البداية تؤيد هيراكس إلا أن الجيوش المصرية لم تتدخل فى الصراع ، بل إنه عندما فر هيراكس إلى الأسكندرية سجنه بطليموس الثالث لكنه لم يلبث أن فر من سجنه وذهب للقتال وملاقاة حتفه عبثاً فى تراقيا . وإذا صح ما يقال من أن بطلميوس الثالث كان يطمع فى ضم الولايات الشرقية فى الأمبراطورية السليوكية فلماذا إذن لم ينتهز فرصة هذه الأحداث التى زعزعت أركانها ويتدخل بجيوشه لتحقيق تلك الأطماع ؟[٢] .

وعندما ارتقى سليوكوس الثالث عرش سوريا فى عام ٢٢٦ ، عهد إلى أخيه الصغير أنطيوخوس بحكم بابل وإلى عمه أندروماخوس (Andromachos) باسترداد آسيا الصغرى من أتالوس (Attalos) صاحب برغامون ، إلا أن أتالوس هزم أندروماخوس . وعندما عبر سليوكوس نفسه الطورس وقتله أحد ضباطه ، خشى أن يقع نضال على العرش بين أنطيوخوس وأخايوس (Achaeos) ابن عمه اندروماخوس ، الذى كان قد عين حاكماً على ولايات آسيا الصغرى ، لكن أخايوس نادى بانطيوخوس ملكاً وعاقب قتلة سليوكوس . وقد اتخذ أنطيوخوس الثالث وزيراً له رجلا سياسياً ماهراً يدعى هرمياس (Hermias)

---

(١) C. A. H. VII pp. 717-9.

(٢) إبراهيم نصحى ص ٦٨ .

ناصب مصر العداء قبل انتهاء حكم بطلميوس الثالث ، لكنه عداء خطيراً بسبب المخاطر التي استهدفت لها عندئذ دولة السليوكيين من داء ثورة والي بابل وفارس ، فلم يكن نصيب الجيش السليوكي الذي غزا جوف سوريا عام ٢٢١ إلا الهزيمة ، وعندئذ قرر أنطيوخوس أن يضع أمور إمبراطوريته في نصابها قبل أن يصفي حسابه مع مصر [١].

وعندما عاد أنطيوخوس مظفراً من حملته الشرقية في أواخر عام ٢٢١ وعلم أنه قد ارتقى عرش مصر شاب ماجن هو بطلميوس الرابع ، اعتقد أن الوقت قد حان لاسترداد جوف سوريا من مصر ، ولذلك سرعان ما استؤنفت أو بدأت « الحرب السورية الرابعة » . ويأخذنا العجب من أن مصر لم تنتهز فرصة متاعب أنطيوخوس لتثأر من اعتدائه على جوف سوريا عام ٢٢١ ، بل إن مصر وقد كانت تتوقع اعتداء أنطيوخوس على ممتلكاتها السورية بعد فراغه من مشاغله في الأمبراطورية لم تستعد لدفع هذا الاعتداء في الحال .

وفي ربيع عام ٢١٩ بدأ أنطيوخوس حملة مظفرة إلى حد أنه لو زحف على بلوزيون لوجد مصر عند موطيء قدميه ، لكنه خدع بدعاية سوسيبيوس (Sosibios) وزير بطلميوس الرابع التي رددت بين الناس أن الجيش المصري بكامل قوته كان متجمعاً عند بلوزيون ، وقد أدخل في روعه أيضاً أنه يستطيع الحصول على جوف سوريا بمفاوضات سلمية لو أنه عقد هدنة لمدة أربعة أشهر ، ولذلك قبل أنطيوخوس الهدنة وعاد إلى سليوكيا في انتظار المفاوضات المزعومة لتسليم جوف سوريا .

وحقيقة الأمر أنه عندما بدأ أنطيوخوس حملته لم يكن في مصر جيش مستعد للقائه بل إن الأغريق الذين كانوا عماد الجيش البطالمي قد انقطع وفودهم على مصر ، ولذلك كان الموقف جد خطير . وإزاء هذه الأزمة لم يكتف سوسيبيوس بأن أحضر من بلاد الأغريق أفضل من تستطيع النقود ابتياع خدماتهم من الضباط والجنود المرتزقة ، وبأن دعا للخدمة العسكرية الجنود الاغريق الذين استقروا في مصر نتيجة ملاحظات التي كان البطالمة قد ضحوهم

(١) C. A. H. VII pp. 723-6.

إياها ، بل اتخذ خطوة كانت لها نتائج بعيدة المدى ، إذ أنه جند كذلك نحواً من ٢٠,٠٠٠ مصرى وسلحهم ودربهم على نهج المقدونيين وكون منهم قلب الجيش . ولاستكمال تدريب هذا الجيش لجأ سوسيبيوس إلى حيلة المفاوضات التى أطيلت عمداً لتحقيق هذا الغرض . وعندما أدرك أنطيوخوس أخيراً حيلة سوسيبيوس قطع المفاوضات فى ربيع عام ٢١٧ واستدعى جيشه لاستئناف القتال . وفى ٢٢ من يونيه عام ٢١٧ التقى الجيشان عند رفح وكانت الغلبة لبطلميوس الرابع ، الذى اكتفى باسترداد جوف سوريا وعاد مسرعاً إلى مصر ليستأنف حياة المجون والعبث ، على حين أخذ الملك المهزوم يعمل بجد ونشاط فى إعادة بناء إمبراطوريته ليثأر لنفسه من مصر[١].

ولم يكن انتصار رفح انتصار باهراً لبطلميوس الرابع وسوسيبيوس فحسب ، بل كان أيضاً انتصاراً رائعاً للمصريين ، الذين يعزى إليهم أكبر الفضل فى إحرازه ، والذين كان البطالمة يعاملونهم حتى ذلك الوقت معاملة المغلوبين على أمرهم . وكان المصريون ، وقد هد الاستعمار الأجنبى كيانهم وسلبهم ثقتهم بأنفسهم ، يلقون عنت طغاتهم فى صبر عجيب ، لكن الدور الذى قاموا به فى معركة رفح أعاد إليهم الثقة بأنفسهم فلم يعودوا يتهيبون الوقوف فى وجه الحكومة ثائرين على ما كانوا يلقونه من صفوف الضغط والارهاق . وقد تعودت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ إلى حد أنها أضعفت قوة البطالمة وشلت حركاتهم فى الخارج فعجزوا عن الاحتفاظ بأمبراطوريتهم البحرية . وسنرى تواً أن العداء بين البطالمة والسليوكيين لم يتمخض عن هذه النتيجة الخطيرة فقط .

وعندما توفى بطلميوس الرابع وخلفه ابنه الطفل بطلميوس الخامس ، عقد أنطيوخوس الثالث ، غريم مصر ، وفيليب الخامس ، حليفها ، محالفة سرية لانقسام ممتلكات مصر الخارجية[٢] ، منتهزين فرصة ضعف السلطة المركزية فى مصر من جراء الثورات القومية والتنافس على الوصاية على الملك الطفل . وإزاء هذه المخاطر استنجدت مصر بروما . لكن لما كانت روما مشغولة

---

(١) C.A.H. VII, pp. 728-31.

(٢) Polyb. XV, 20.

بمحاربة فيليب الخامس ، وكانت أنطيوخوس قد استولى على جوف سوريا وكل ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى ، وكانت مصر وقد أنهكتها الثورات القومية والاضطرابات الداخلية فى حاجة ملحة إلى الهدوء والسلام ، فإن أريستومنس أريستومنس (Aristomenes) وزير بطلميوس الخامس . لم ير مفراً من أن يتفاهم مع أنطيوخوس بعقد معاهدة معه تقضى بتنازل مصر له عن ممتلكاتها فى سـوريا وآسيا الصغرى وتراقيا وزواج بطلميوس الخامس من كليوبترة الأولى ابنة أنطيوخوس . وقد كان أنطيوخوس أيضاً يميل إلى التفاهم مع مصر لأنه أخذ يشعر عندئذ أن دور نضاله مع روما آت لا ريب فيه إذ أنها كانت لا تستطيع السماح له بالتوسع فى الشرق كيف يشاء فيصبح خطراً يتهدد نفوذها هناك . ومن ثم أخذ يعمل على كسب ود جيرانه ليقفوا إلى جانبه فى الكفاح المقبل بينهما . ولعل الدوافع إلى هذه المصاهرة الجديدة بين أسرتى البطالمة والسليوكيين لم تخل فى نظر كل من بطلميوس الخامس وأنطيوخوس الثالث مما هو أبعد من ذلك . فأغلب الظن أن بطلميوس الخامس كان يعلل النفس بأن يستعيد على هذا النحو جوف سوريا الذى كان يعتبر على الدوام ضرورياً لحماية حدود مصر الشرقية . وأغلب الظن أيضاً أن أنطيوخوس كان يمنى نفسه بأن يقضى هذا الزواج إلى بسط سلطانه على مصر . ومعنى ذلك أنه بعد أن كانت كل آمال السليوكيين فى الماضى استرداد جوف سوريا أصبحوا يطمحون إلى الاستيلاء على مصر نفسها[1] .

وإذ تقرر أن تكون جزية جوف سوريا دوطة كليوبترة الأولى ، اعتقد الجانب المصرى أن ملكية هذا الإقليم قد عادت إليه بموجب هذا الزواج ، ظناً منه أن التنازل عن جزية هذا الإقليم ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكيته . ولعل الجانب المصرى فى ضعفه وتلهفه على الاتفاق مع إغراقه فى التفاؤل ورغبته فى ألا تبدو آماله سافرة بحيث تنفر الجانب الآخر لم يصر على تحديد ملكيته جوف سوريا فى شروط المعاهدة عسى أن تساعده الظروف فى المستقبل على تحقيق آماله دون عناء . ولا جدال فى أن الجانب السليوكى كان يعتزم الاحتفاظ

(١) إبراهيم نصحى ص ٩١ – ٩٢ .

بملكية جوف سوريا دون أنه يخيب عندئذ آمال الجانب المصرى التى لم تكن خافية عليه فجعل دوطة كليوبترة جزية جوف سوريا موهماً الجانب المصرى بأن التنازل عن الجزية ينطوى أيضاً على التنازل عن ملكية الإقليم دون ما حاجة إلى النص على ذلك فى شروط المعاهدة ، وهو ما كان الجانب السليوكى يحرص على تفاديه . ولا شك فى أن حرص السلوكيين على عدم تحديد ملكية جوف سوريا فى شروط المعاهدة يفضح نواياهم ، فقد كانوا يؤملون أنه عندما يثار هذا الموضوع فى المستقبل تكون الحاجة إلى استرضاء مصر قد انفضت ويكون فى وسعهم ، باعتبارهم الطرف الأقوى ، أن يفسروا شروط المعاهدة وفقاً لوجهة نظرهم ، على نحو ما يحدث منذ أقدم العصور حتى اليوم فى تفسير الاتفاقيات السياسية . وقد كان فى وسع السليوكيين القول عندئذ بأن التنازل عن جزية جوف سوريا لا يستتبع حتما التنازل عن ملكية هذا الإقليم ، بل القول أيضاً أن هذه المنحة شخصية وتعود إلى مانحها عقب وفاة كليوبترة[١] .

وإزاء ذلك لم يكن هناك مفر من تجدد النزاع فى المستقبل القريب بين السليوكيين والبطالمة . وعقب وفاة بطليموس الخامس تولت كليوباترة الوصاية على ابنها إلى أن توفيت فى عام ١٧٦ ق . م . فكان ذلك إيذاناً بتجدد المشكلة السورية . ولما كان كل من الجانبين قد تمسك بوجهة نظره فإنه لم يكن هناك بد من الاحتكام إلى السيف لفض هذا النزاع . وما كادت تتم إستعدادات الفريقين للحرب حتى نشبت « الحرب السورية السادسة » التى تمخضت عن نتائج خطيرة ، فإن أنطيوخوس الرابع هزم الجيش البطالمى وتقدم إلى منف ، حيث أرغم ابن أخته بطلميوس السادس على قبول حمايته له ، مما دفع الإسكندريين إلى المناداة بأخيه الصغير ملكاً[٢] . فزحف أنطيوخوس على الإسكندرية بحجة الدفاع عن حقوق الملك الشرعى ، لكنه إزاء صعوبات الحصار وبسبب قلق أنطيوخوس من جراء ، اضطرابات وقعت فى فلسطين ،

(١) Cf. Josephos, Antiq. XII, 4, 154; C.A.H. VIII, pp. 187, 199; Cuq, in Syria vol. VIII, 1927; pp. 143, 144.

(٢) Otts,zur Gesch. Zeit des 6. Ptol. pp. 47-57.

قفل راجعاً إلى مملكته تاركاً حامية فى پلوزيون وبطلميوس الصغير ملكاً فى الإسكندرية وبطلميوس السادس ملكاً فى منف ، معتمداً على أن منافسة الأخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية(١) .

وفى شتاء عام ١٦٩ — ١٦٨ خابت الأمال التى عقدها أنطيوخوس على منافسة الملكية الأخوين ، إذ أن المفاوضات التى دارت بينهما أفضت ، بفضل مساعى أختهما كليوبترة الثانية إلى اتفاقهما على أن يحكما البلاد سويا ، مما أثار غضب أنطيوخوس ودفعه إلى غزو مصر ثانية فى ربيع عام ١٦٨ ولذلك أخذ الأخوان يبحثان عن النجدة فى كل مكان . وللمرة الثانية تقدم أنطيوخوس بجيشه حتى أسوار الإسكندرية ، وهناك تمت المقابلة المشهورة بين أنطيوخوس وجايوس بوپيليوس لايناس (C. Popilius Laenas) السفير الرومانى . ولما كانت روما قد خرجت منذ برهة وجيزة منتصرة من « الحرب المقدونية الثالثة » فقد أصبح فى وسعها أن تتفرغ لأنطيوخوس وتملى عليه إرادتها ، وعندما ذهب السفير الرومانى لمقابلة أنطيوخوس لمصافحته يدّ الملك يده لمصافحته ، لكن السفير بدلا من أن يصافح الملك وضع فى يده رسالة تحوى قرار السناتو وطلب إليه أنا يقرأها قبل كل شىء ، فأطلع الملك عليها وأخبره أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه . فلم يكن من السفير إلا أن خط بالعصى التى يمسكها دائرة حول الملك وطلب إليه أن يفصح كتابة عما يدور قبل أن يخطو خارج هذه الدائرة . فأخذ الملك بهذا المسلك الغريب الجرىء وتردد لحظة ثم أعلن أنه سيستجيب إلى المطالب الرومانية ، وعندئذ هز پوپيليوس يد الملك وحياه تحية ودية . وقد كانت رسالة السناتو تنطوى على أمر أنطيوخوس بالانسحاب من مصر وقبرص ، لا حباً فى الحرية ولا انتصاراً للاستقلال ، وإنما خوفاً على مركز روما فى شرق البحر الأبيض المتوسط من اتساع إمبراطورية السليوكيين(٢) فما أقرب الشبه بين أساليب السياسة قديماً وحديثاً ! وقد أذعن أنطيوخوس لإدانة

---

(١) C.A.H. VIII, p. 506; Bonché - Leclercq II, pp. 18-21.

(٢) Polyb. XXIX, II; Diod. XXXI, 2; Livius, XLV, 2; Bouché-Lecl. II, pp. 21-7; C.A.H. VIII, pp. 501-7.

روما لأنه كان من الحمق أن يشتبك معها بعد انتصارها فى مقدونيا وقبل بجاحة فى ضم مصر إليه[١] .

إن الحرب السورية السادسة لم يستفد منها إلا روما التى وضعت مصر على هذا النحو تحت حمايتها ، وقد ساعد النضال الدموى العنيف الذى سرعان ما نشب بين الأخوين الملكين على توطيد نفوذ روما فيها ، فلم يعد لمصر إلا ظل من الاستقلال وإذ أفلحت روما فى إخراج أنطيوخوس من مصر ذليلا مهاناً ، ظل العداء كامناً فى نفوس السليوكيين الذين أخذوا يتطلعون دون جدوى إلى فرصة ينقضون فيها على مصر . ومن ناحية أخرى لم ينس البطالمة ما ألحقه بهم أنطيوخوس الثالث والرابع من الذل والإهانة ، ومن ثم كانوا يضمرون للسليوكيين حقداً دفيناً ويعملون على الانتقام منهم وعلى محاولة استرداد جوف سوريا .

وعندما انفرد بطلميوس السادس بعرش مصر لم يلبث مجرى الحوادث فى سوريا أن أعطاه الفرصة للانتقام من السليوكيين ، فإن شخصاً يدعى إسكندر بالاس (Balas) قام يطالب بعرش سوريا ، الذى كان يتربع عليه عندئذ ديمتريوس الأول ، وبادر بطلميوس السادس إلى التحالف مع هذا المناوئ لديمتريوس . وفى صيف عام ١٥٠ ق . م . ساهم جيش بطالمى فى انتصار بالاس على ديمتريوس ، ومن ثم أصبح بالاس ملكاً على سوريا وبابل . وفى عكا تزوج بالاس من كليوبترة ثيا (Thea) ابنة بطلميوس السادس[٢] . لكن سرعان ما أثبت بالاس أنه غير جدير بالعرش الذى وقع فى قبضته ، فقد كان رجلا تافهاً ترك تصريف شئون الدولة فى قبضة وزيره أمونيوس (Ammonios) . وفى ربيع عام ١٤٧ بدأ ديمتريوس بن ديمتريوس الأول يعمل على استرداد عرش أبيه ، فاعتقد بطلميوس السادس أن الفرصة مواتية لاسترداد جوف سوريا . ومن ثم زحف من الجنوب على رأس جيش كبير واستولى على أهم المدن الساحلية حتى سليوكيا . وعندئذ أعلن انضمامه إلى جانب

---

(١) Rostovtzeff, p. 67.

(٢) C.A.H. VIII, p. 507-24; Bouché-Lecl. II, 46-9.

ديمتريوس الثانى واعدا إياه بعرش سوريا وبابل ويد ابنته كليوبترة ثيا ، زوجة بالاس على أمل أن يفوز بجوف سوريا لقاء ذلك . وهكذا أصبحت لمصر اليد العليا ثانية فى الشئون السورية حتى إن أهل أنطاكية عرضوا العرش على ملك مصر الذى كان صاحب هذا العرش قد أسره وكاد يستولى على كل مملكته منذ قليل . وسبحان مغير الأحوال ! لكن بطلميوس السادس رفض أن يضم الدولة السليوكية إلى مصر ، لا زهداً منه ولا قناعة وإنما خشية الاشتباك مع روما بسبب ذلك ، ومن ثم أقنع الأهالى بقبوله ديمتريوس الثانى ملكاً عليهم . وفى أوائل صيف عام ١٤٥ التقى بطلميوس السادس مع بالاس فى معركة حامية انتصر فيها بطلميوس لكنه أصيب بجرح مميت فى ميدان القتال . وقبل أن يلفظ النفس الأخير أتاه نبأ مصرع بالاس على يدى أحد شيوخ الأعراب[١]

وقد كانت النتيجة المباشرة لوفاة بطلميوس السادس أنه لم تعد تحت إمرة مصر عندئذ قوات كافية وأنها فقدت فتوحاتها فى سوريا ، إذ كان بطلميوس قد أخذ معه إلى سوريا الجانب الأكبر من القوات البطالمية ، وانتهز ديمتريوس الثانى فرصة مقتله وأرغم هذه القوات على الانضمام إلى جيشه أو الانسحاب إلى مصر كيفما اتفق[٢] .

وفى عهد بطلميوس السابع أتاحت الأحداث السورية لمصر فرصة جديدة للتدخل فى شئون الدولة السليوكية ، إذ أن ديمتريوس الثانى أصبح بغيضاً هناك إلى حد أن الأهالى طلبوا بطلميوس السابع أن يختار لهم ملكاً بدلا من ديمتريوس ، فاختار لهم شاباً كان ابن تاجر مصرى يدعى پروتارخوس (Protarchos) ، لكنه ادعى أنه ابن إسكندر بالاس واتخذ فعلا اسم الإسكندر ، غير أن أهل أنطاكية أطلقوا عليه لقب زابيناس (Zabinns) ومعناه العبد المشترى ؛ ومع ذلك فإنهم كانوا يفضلونه على ديمتريوس . وبالرغم من تأييد مصر لترابيناس فإنه استغرق ثلاثة أعوام كان قد قضى على ديمتريوس أعوام ليفوز

---

(١) C.A.H. VIII, pp. 524-5; Bonché-Lecl. II, pp. 49-53.

(٢) Bevan, p. 306.

بالعرش بسبب نشاط ديمتريوس الخارق للعادة [١] . وإذا كان قد قضى على ديمتريوس فإن زوجه كليوبترة ثيا استمرت تناضل ترابيناس للاحتفاظ بحقوق أسرة السليوكيين أصحاب العرش الحقيقيين . وعندما تصالحت كليوبترة الثانية ، أم كليوبترة ثيا ، فى عام ١٢٤ مع أخيها وزوجها الثانى وبطلميوس السابع ، أخذ ملك مصر يؤيد ابنة أخيه وأخته ضد زابيناس الذى قضى عليه فى العام التالى . وبعد أن دبرت كليوبترة ثيا مقتل ابنها سليكوكوس الخامس ، لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها ، أشركت معها فى الملك ابنها الآخر أنطيوخوس الثامن ، الذى وعد بأن يسلس لها القياد وتزوج كليوبترة تريفاينا (Tryphaena) ابنة بطلميوس السابع . وفى عام ١٢١ لقت كليوبترة ثيا حتفها ، إذ أنها كانت تريد أن تحكم تحت ستار اسم ابنها ، لكنه لم يسلس لها القياد كما وعد ، فصممت على أن تدس له السم ، إلا أنه كشف عن المكيدة فى الوقت المناسب وأرغمها على تجرع السم الذى أعدته له . ويبدو أن بطلميوس السابع اكتفى بتنصيب ابنته ملكة على سوريا نتيجة لزواجها من أنطيوخوس الثامن فلم يكن له أى نشاط هناك عقب ذلك [٢] .

وقد أفضى النزاع بين أنطيوخوس الثامن وأخيه الصغير أنطيوخوس التاسع إلى تدهور الدولة السليوكية وكذلك إلى تدخل مصر من جديد فى الشئون السورية مما تمخض عن انفجار الصراع الكامن فى أسرة البطالمة بين بطلميوس الثامن من ناحية وأخيه بطلميوس التاسع وأمه كليوبترة الثالثة من ناحية أخرى ، إذ كان بطلميوس الثامن يؤيد أنطيوخوس التاسع ضد أنطيوخوس الثامن ومناصريه اليهود على حين كانت كليوبترة الثالثة وبطلميوس التاسع يميلان إلى تأييد أنطيوخوس الثامن واليهود [٣] . ويظهر أن كليوبترة الثالثة كانت تتطلع إلى الاستعانة بيهود الإسكندرية لتأييدها فى الصراع الداخلى ، وبيهود بيت المقدس للتدخل فى سوريا تدخلا مثمراً . وعلى كل حال لم تفد

---

(١) Bouché-Leclercq, II, pp. 77-9; Bevan pp. 313-4.

(٢) ,, ,, pp. 79-80; Bevan p. 314; Jouguet, Nat. Ey. p. 159.

(٣) Bevan p. 328; Jouguet, Nat. Eng. p. 161; C.A.H. VIII, p. 531; IX pp. 386-7.

مصر شيئاً على الإطلاق من تدخل الفريقين المتخاصمين فى شئون سوريا .

وقد أفضت الانقسامات الأسرية العنيفة بين السليوكيين إلى نقص مواردهم المالية وضعف قوتهم الحربية ، ومن ثم عجزوا عن صد الاعتداءات الخارجية وعن وقف تيار الانحلال الداخلى . فقد استولت بارثيا على الولايات الشرقية وبابل وبلاد ما بين النهرين[١] ، وضمت روما كيليكيا[٢] ، وأخذت أرمينيا تلتهم جزءاً بعد آخر من أملاك السليوكيين فلم يأت عام ٨٣ حتى كانت أرمينيا قد بسطت حدودها حتى جبل لبنان وطردت السليوكيين من سوريا[٣] . وانتهزت هذه الفرصة كوماجين (Coumagene) فى الشمال وچودايا فى الجنوب فاستقلتا عن السليوكيين[٤]. ولم يفت النبط أن يفيدوا من هذه الظروف فأخذوا يبسطون رقعة دولتهم جنوباً وشرقاً وشمالا حتى أنهم استولوا على دمشق[٥] . ولم تلبث البقية من دولة السليوكيين أن تقسمت إلى ولايات صغيرة[٦] . وبعد فتوحات پومبى فى الشرق دخلت سوريا فى حظيرة الإمبراطورية الرومانية فى عام ٦٤ ق . م .[٧] .

وعندما تزعزع مركز بطلميوس الحادى عشر فى مصر وفر منها إلى روما لم يفلح فى استعادة عرشه فى عام ٥٥ ق. م . إلا بمساعدة جابينيوس الحاكم الرومانى لولاية سوريا[٨] . وعندما خلفت كليوبترة السابعة ، وهى أشهر من من حملن هذا الاسم ، عندما خلفت إياها على عرش مصر ، لم ترنو ببصرها التى ضم جوف سوريا فحسب بل ولا سوريا كلها فحسب بل حاولت وكادت أن تنجح مرتين ، بفضل أسلحتها الذرية وعن طريق قيصر أولا وأنطونيوس

---

(١) Rostovtzell, p. 841.

(٢) Jouquet, Nat. Eg. p. 164.

(٢) Cary, pp. 352-3.

(٤) Rostovtzell, pp. 841-2.

(٥) Rostovtzell p. 841; Cary p. 356.

(٦) Rostovtzell pp. 842-4; Tarn p. 42.

(٧) Bevan p. 351; Cary p. 3566.

(٨) Bouché-Lecl. II, pp. 162-3; Bevan p. 356; C.A.H. IX, p. 604.

ثانياً ، فى التربع على عرش الإمبراطورية الرومانية بأجمعها . وإذا كان قتلة قيصر قد قضوا لحظة على هذه الآمال الواسعة فإن عبقرية أغسطس قضت عليها إلى الأبد كما قضت على دولة البطالمة نفسها فأصبحت مصر ولاية رومانية فى فى عام ٣٠ ق . م .

وإذا كانت العلاقات بين البطالمة والسليوكيين وليدة عوامل سياسية واقتصادية فإن العلاقات بين مصر والجزيرة العربية كانت وليدة علاقات اقتصادية فقط مبعثها شدة اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية ، ذلك الاهتمام الذى كان أيضاً أحد أسباب حرصهم على الاحتفاظ بملكية جوف سوريا ، بل أحد العوامل الرئيسية التى أملت سياستهم الخارجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وبيان ذلك أن تجارة الشرق الأقصى كانت تسلك ثلاث طرق رئيسية فى سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط ، وهى طرق الشمال وطريق الوسط وطريق الجنوب . وكانت طريق الشمال تتجه من أواسط آسيا صوب بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل (١) . أما طريق الوسط ، التى كانت أهم هذه الطرق فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، فكانت من الهند إلى سليوكيا على الدجلة أما بحر أو براً . وكانت التجارة المتجمعة فى سليوكيا تشق سبيلها نحو الغرب ، إما إلى دمشق وصور ، أو إلى أنطاكية ، التى كانت تخرج منها طريق رئيسية إلى إفيسوس . ولم تفقد طريق الوسط أهميتها إلا عندما استولت پارثيا على بابل ، ومن ثم أخذت تزداد أهمية طريق الجنوب ، وكانت طريقاً بحرية من الهند إلى الموانى الواقعة فى جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربى (٢) ، وكانت أهمها فى عهد البطالمة أدانا (Adana) وجزيرة سقطرى (٣) وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها لدى الأعراب ، الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب . وكانت هذه التجارة تسلك إلى الشمال طريقين ،

---

(١) Strabo, 71, 73, 498, 509; Plin. VI, 52.

(٢) Tarm, pp. 211-2.

(٣) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 170.

لم تكن إحداهما مستعملة بكثرة قبل عهد البطالمة ، وهى الطريق البحرية فى محاذاة الشاطئ الأفريقى أو شاطئ بلاد العرب . أما الطريق الأخرى وكانت أكثر أهمية من الأولى فهى الطريق البرية القديمة[١] ، التى كان النبط يسيطرون عليها منذ عهد الفرس . وعندما كان البطالمة الأوائل لا يمتلكون فلسطين وفينيقيا ، كانوا يعتمدون على النبط فى الحصول على حاجتهم من التجارة الشرقية ، وذلك لأن هذه الطريق البرية ، وتعرف باسم « طريق البخور » كانت تمر بسبأ ومعين وددان (Dedan — العلا) وأيلة (العقبة) إلى البتراء ، التى كانت تأتى إليها طريق أخرى من جرا (Gerrha) على الساحل الغربى للخليج الفارسى . فكان النبط يستطيعون توجيه التجارة حيثما تملى عليهم رغبتهم وأرباحهم ، إما إلى مصر أو إلى أى مكان آخر بعيد عن قبضة البطالمة . إلا أنه فى العادة كان جانب من التجارة الشرقية الآتية إلى البتراء يذهب إلى مصر ، وجانب آخر إلى غزة ، وجانب ثالث فيما يظن إلى سليوكيا على الدجلة ، والباقى إلى الشمال نحو أنطاكية . وكانت الطريق الطبيعية لذلك تمر بدمشق ، كما كانت الحال بعد عام ٢٠٠ ق . م . ، عندما أصبح جوف سوريا فى قبضة السليوكيين وظهرت قيمة ذلك فيما عرضه أنطيوخوس الرابع إبيفانس من الذهب والعاج والتوابل الهندية فى الحفل الذى أقامه . أما عندما كان البطالمة يمتلكون جوف سوريا ، فإن التجارة المتجهة شمالا كانت تتبع أيضاً طريقاً أخرى تمر بفيلاديفيا (عمان) وچراش (Gerasa) إلى بطوليميس (عكا) ومنها إلى فينيقيا[٢] .

ولم يكن فى وسع البطالمة وضع التجارة الشرقية فى قبضتهم ، إلا إذا تحكموا فى منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا وعلى شواطئ البحر الأحمر . ويمكن تقسيم اهتمام البطالمة بالتجارة الشرقية إلى فترتين : إحداهما فى القرن الثالث ، عندما وجهوا جل عنايتهم إلى الاستيلاء على سوريا وشواطئ آسيا

---

(١) Rostovtzeff, p. 387.

(٢) Tarn, pp. 213-4.

الصغرى ؛ والأخرى ، منذ عهد بطلميوس السابع فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، عندما اتجه إهتمامهم كلية إلى طريق الجنوب ، نتيجة لطردهم من آسيا الصغرى وسوريا وتلاشى سلطانهم من بحر إيجة .

ولا شك فى أن بعض أسباب نضال البطالمة مع السليوكيين من حوالى ٢٨٠ إلى ١٩٨ ق . م . تعزى إلى التنافس على الاستيلاء على منافذ الطرق التجارية فى آسيا الصغرى وسوريا . وقد انتهى هذا النضال بطرد مصر من آسيا الصغرى وسوريا فى عام ١٩٨ — ١٩٧ ق . م .[١] لكن استيلاء البطالمة على سوريا وبعض أجزاء آسيا الصغرى فى القرن الثالث لم يصرف البطالمة عن الاهتمام بطريق الجنوب التى كانت تجذبهم إليها عدة دوافع . ولا أدل على هذا الاهتمام من آن البطالمة أوفدوا سلسلة من البحوث الكشفية لمعرفة الشواطئ والشعوب وموارد الثروة أولا فى البحر الأحمر وفيما بعد فى منطقة المحيط الهندى . وقد بدأ بطلميوس الأول حركة الكشف فى البحر الأحمر[٢] ، إذ أن فيلون أمير البحر عنده كشف جزيرة الزمرد[٣] . واقتفى بطلميوس الثانى خطوات أبيه فأرسل حوالى عام ٢٨٠ أريستون للتعرف على شواطئ بلاد العرب من شبه جزيرة سينا حتى بوغاز باب المندب ، فزار شاطئ سينا حتى أيلة النبطية عند رأس خليج أيلة (خليج العقبة) ، ثم اتجه جنوباً ولاحظ أن النبط لم يتسعوا بعد جنوباً إلى ما وراء نهاية الشاطئ الشرقى لخليج أيلة ، وأنه لم يوجد جنوبى النبط إلا قبائل صغيرة . وقد كان أريستون أول إغريقى عرف شيئاً عن القبيلة الكبيرة ثمود ، التى كانت تقطن جانباً من الحجاز ، ووجد جنوبى ثمود إقليما أطلق عليه أرض الذهب على ضفاف نهر دباى (Debai) ، وزار مملكة معين فى جنوب بلاد العرب . ولا بد من أنه قد زار أيضاً مملكتى سبأ وكاتابانيا (Katabania) اللتين يذكرهما ، بين ممالك بلاد العرب الجنوبية ،

---

(١) Tarn, p. 212

(٢) Rostovtzeff, Archiv fur Papyrusforschung, IV, 298; Tarn, p. 214.

(٣) Diod. III, 39, 4; Plin. XXXVII, 108; Tarn, p. 214.

أراتوستينيس الذي اعتمد فيما كتبه على تقرير أريستون . ولم يذكر هذا الرحالة شيئاً شرقي حضرموت ، لأن مهمته انتهت بوصوله إلى مضيق باب المندب[١] .

ومن المحتمل أن بطلميوس الثانى أرسل ، عقب رحلة أريستون ، حملة ضد النبط[٢] ، الذين اشتهروا فى عصر البطالمة بأعمال السطو والقرصنة ، إذ لا يبدو أنه كانت توجد منذ القدم علاقات تجارية بين أيلة وهروونوپوليس (Heroonopolis) زادتها نشاطاً زيارة أريستون إلى أيلة[٣] ، فنشط أيضاً قراصنة النبط فى الاعتداء على المراكب . ولما كان ينبغى على فيلادلفوس حماية تجاره ، فمن المحتمل أنه غزا النبط لمعاقبتهم على سوء أعمالهم . ومن المحتمل أيضاً أنه استولى إذ ذاك على الشاطئ الشرقى للبحر الميت ، الذى كان فى قبضة النبط .

وإذا كان هناك خلاف فى الرأى حول إرسال بطلميوس الثانى حملة ضد النبط للحد من قرصنتهم ، فإن الكل يتفق على أن رحلة أريستون كانت تمهيداً لتقوية علاقات مصر التجارية مع شمال بلاد العرب ، إذ أن العامل الاقتصادى كان فى أغلب الأحيان أهم الدوافع وراء ما قام به هذا العاهل[٤] . وإذا كانت أشور وبابل وفارس قد حاولت فى أيام عزهما الاستيلاء على « طريق البخور » فقد كان طبيعياً أن يحاول هذا الملك العظيم أيضاً الاستيلاء على هذه الطريق جنوبى النبط ليحول جانباً من التجارة الشرقية إلى مصر ، فيجنى من وراء ذلك فائدة كبيرة وفى نفس الوقت يلحق بأعدائه النبط أضراراً فادحة . ولذلك فإنه عقب رحلة أريستون أنفذ حملة إلى بلاد العرب تمخضت عن تنشيط العلاقات التجارية مع شعب ينزل فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية على حافة « طريق البخور » فى المدينة التى تعرف الآن باسم « العلا » وكانت تعرف باسم مصران (Musran) وذكرت فى الإنجيل باسم « ددان » وكانت مستعمرة

---

(١) Diod. III, 42, 1; J.E.A. XV, p. 14.

(٢) Tarn, J.E.A., XV, p. 16.

(٣) Tarn, J.E.A. XV, p. 15.

(٤) Tarn, J.E.A. XIV, p. 246.

لمعين أو فرعاً من هذة المملكة[١] . وكانت تجارة هذه المدينة تنقل بالبر والبحر ، ولذلك لا بد من أنه كانت لها ميناء يظن أنها كانت إرجا (Erga) جنوبى مدخل وادى حمد . ويبدو محتملا أنه قد ترتب على تنشيط العلاقات التجارية القديمة بين مصر والعلا إنشاء ثغر أمپلونى (Ampelone) على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر . ومن هذا الثغر كانت تجارة الهند وبلاد العرب الجنوبية تنقل إلى مصر[٢] . وتحدثنا نقوش تابوت الكاهن المصرى زيدل (Zidl) بأنه فى العام الثانى والعشرين من حكم فيلادلفوس إستبدل بالبوسوس المصرى بضائع شرقية مع تجار معينيين دون وسيط[٣]. وكانت أمبلونى مستعمرة ميليتية يرجح أن بطلميوس الثانى هو الذى أوعز إلى ميليتوس بتأسيسها كما استعان أنطيوخوس الأول بمجنسيا فى تأسيس مستعمرة له فى بلاد الفرس[٤] . وعلى كل حال فإنه عندما تكاتفت عوامل مختلفة على تنشيط تجارة البطالمة فى البحر الأحمر منذ منتصف القرن الثانى أهمل البطالمة ثغر أمپلونى . وفى الوقت نفسه كان النبط قد تحضروا ونفوذهم امتد جنوباً ، فقضوا على أمپلونى وأنشأوا مكانها ، فيما يظن ، ليوكى — كومى (Leuke-Kome)[٥] .

ومما يجدر بالملاحظة أن الطريق البحرية لم تستهو كثيراً تجار الإغريق والعرب فى بداية عهد البطالمة بسبب خطورة الملاحة فى البحر الأحمر . وإذا كان من المؤكد أن هذه الطريق كانت تستخدم عندئذ فإنه من المؤكد أيضاً أن التجار كانوا يفضلون طريق البر برغم تكاليفها الفادحة . فلا عجب إذن أن بطلميوس الثانى قد استبدل بسياسته الأولى المعادية للنبط سياسة سلمية ، واتفق مع المدن الفنينيقية على نظام مرض فيما يتعلق بالتجارة الشرقية . ولذلك فإن الوثائق البردية (وثائق زينون) تشير بكثرة إلى شراء سلع من القوافل فى

---

(١) Tarn, J.E.A. XV, p. 16.

(٢) Tarn, J.E.A. XV, pp. 17 ff.

(٣) Zeitsch. fur Semitistik, I, 1922, pp. 113-133.

(٤) Tarn, J.E.A. XV, pp. 21ff.

(٥) Tarn, J.E.A. XV, p. 23.

فلسطين ، كما أنها تشير أحياناً إلى عقد صفقات مع النبط . ويتفق معاصرو بطلميوس الثانى على أن مصر كانت تجنى أرباحاً وفيرة من تجارة القوافل العربية بمساعدة المدن الفينيقية . وإذا كانت التجارة الشرقية قد عادت سيرتها الأولى عن طريقها القديمة ، فإن بطلميوس الثانى قد أفلح فى تحويل جانب منها إلى مصر بفضل علاقاته مع المعينيين(١) .

وقد مر بنا أن تجارة مصر الشرقية إضمحلت منذ عهد بطلميوس الخامس ، عندما طرد السليوكيون مصر من آسيا الصغرى وسوريا ، وتحكموا فى طرق القوافل القادمة من شواطئ بلاد العرب إلى سوريا بطريق البتراء ، لكن هذا الاضمحلال كان مؤقتاً ، لأن المجهودات التى كان البطالمة يوجهونها فيما مضى إلى آسيا الصغرى وسوريا تحولت فى عهد بطلميوس السابع إلى طرق الجنوب . فأخذت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد أن كانت لا تتخطى بوغاز باب المندب اجترأت إذ ذاك على اجتياز هذا البوغاز ، ووصلت إلى الإقليمين اللذين كانا ينتجان العطور وهما : حضرموت فى جنوب بلاد العرب ، و بلاد پنت على شاطىء الصومال ، إذ أن المستكشفين أخذوا يوجهون نشاطهم نحو الجهات التى يريد التجار زيارتها(٢) . وقد ترتب على ما أولاه بطلميوس السابع من العناية لتنظيم وتأمين طريق الجنوب أن ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التى كانت تمر بمصر ، حتى أنها فاقت كثيراً تلك المقادير التى كان البطالمة الأوائل يحتكمون فيها(٣) . وكان طبيعياً أن يصاحب نشاط مصر التجارى فى البحر الأحمر تقوية الروابط بينها وبين بلاد العرب . ويحدثنا پوسايدرينوس (Poseidonios) بأنه فى عهد بطلميوس السابع أبحر إيودوكسوس (Eudoxos) فى رفقة بحار هندى إلى الهند(٤) ، وبذلك كان أول إغريقى وصل إلى الهند دون الاستعانة بالطرق البرية . وعندما أصبح

---

(١) Cf. Rostovtzeff, pp. 388-9.

(٢) Préaux, L'economie royale des Lagides, 1929, pp. 358-9.

(٣) Rostovtzeff, p. 924.

(٤) Strabo, 98-102.

فى الإمكان الاتصال بالهند مباشرة ، كان لا بد من أن يضمحل الدور الذى كان العرب يلعبونه بمثابة وسطاء ، وأن تعتر تبعاً لذلك العلاقات بين مصر والعرب . ومما ساعد على ازدهار تجارة مصر الشرقية إنهيار مملكة سبأ فى عام عام ١١٥ ق . م . [١] ؛ وضعف مملكة السليوكيين فى عهد أنطيوخوس الرابع وخلفائه ؛ واستكشاف هيبالوس (Hippalos) طرق الاستفادة من الرياح الموسمية حوالى عام ١٠٠ ق . م .[٢] . مما يسر اجتياز باب المندب ، بل الإبحار إلى الهند مباشرة ، وإن كان يبين أن هذا الاستكشاف لم يستغل استغلالا تاماً إلا فى العهد الرومانى . ومع ذلك فقد استفاد منه البطالمة الأواخر ، لأن مراكبهم كانت تزور الموانئ فى جنوب بلاد العرب ، وكشفت جزيرة سقطرى ، وأبحرت أحياناً إلى الهند[٣] . وفى الواقع أنه إزاء نقص موارد مصر وازدياد مطالب إيطاليا من منتجات بلاد العرب والهند فى أواخر القرن الثانى ، اكتسبت التجارة الشرقية فى نظر البطالمة أهمية لم تكن لها من قبل[٤] . ولا أدل على ذلك ذلك من أنهم أنشأوا منصباً جديداً فى أواخر القرن الثانى وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والبحر الهندى » ، الذى يرجح أنه فى بداية الأمر كان يتولاه قائد مريدية قفط ، أما منذ عام ٧٨ ق . م . فإن قائد منطقة طيبة هو الذى كان يشغل هذا المنصب الجديد[٥] .

ولا سبيل إلى الشك فى أن التجارة الشرقية والاستكشافات تقدمت باطراد فى عهد البطالمة ، فأصبح لمصر نفوذ كبير فى بلاد العرب والهند حتى أن كليوبترة السابعة إقترحت على أنطونيوس بعد هزيمتهما فى موقعة أكتيوم أن يهجرا البحر الأبيض ويقيما لها ملكاً على شواطىء البحار الهندية . ولا ريب فى

---

(١) Tarn, Hell. Civ. p. 214.

(٢) Jouguet, Nat. Eg. III, p. 171.

(٣) Tarn, p. 216.

(٤) Tarn, p. 215.

(٥) Rostovtzeff, p. 928; O.G.I.S., 186, 190.

أنها كانت جادة فى اقتراحها[١] ، وتلم جيداً بتلك الأصقاع الشرقية التى درسها المستكشفون ونشروا أخبارها . فقد كانت تدفعهم إلى كشوفهم حب المعرفة ، والحاجة إلى وصف الأقاليم المأهولة بالسكان ، والميل الفلسفى إلى دراسة حياة الشعوب المتبربرة التى كانت أكثر بداوة وكذلك أكثر سعادة من غيرها ، والرغبة فى فتح طرق جديدة نحو الشرق تقضى على احتكار الأعراب ، والشغف بإحياء التقاليد القديمة التى وضعتها حتشبسوت والإسكندر ودفع إليها حب المنفعة ، فكل هذا قد حدا بأولئك الرجال إلى كشف سبل طريق الجنوب . وتتجاوب أصداء هذه الدوافع فى مذكراتهم أو تقاريرهم التى رفعوها إلى البطالمة ، واستخدمها المؤرخ أجاثارخيدس (Agatharchides) والجغرافى أرتميدوروس فيما كتباه فى القرن الثانى قبل الميلاد . وكذلك اعتمد ديودوروس واسترابون على هذين الكاتبين فيما ألفاه بعد ذلك بحوالى قرن[٢] .

إبراهيم نصحى

(١) Tarn, p. 216.

(٢) Tarn, J.E.A. XV, 1929, p. 14.